

صدايقه العربى المطبعة السنة التوجيهية

ديوان البارودي

للدكتور زكى مبارك

—

تمهيد — تقد مقدمة هيكل باشا — نصيب البارودي من علوم
اللغة العربية — الخريات والقراميات — الجديدي شعر البارودي
— التحكم فى التاريخ — الطبيعة بين الصمت والنطق —
المستشرقون فى عهد توفيق — تاريخ الشعر العربى —
المصريون فى عهد البارودي — ما صنع البارودي فى منفاه

تمهيد

المقرر للمصاحفة هو الجزء الأول ، طبع دار الكتب المصرية
ومرح الأستاذين : على الجارم بك ، ومحمد شفيق معروف ؛
وهو بطلب من مخازن وزارة المعارف ومن شهرات المكاتب
وللشارحين كلمة يشكران فيها للفقراشى باشا « لاهتمامه
بإنجاز طبع الديوان » ، وهيكل باشا « لشكره بكتابة التقديم »
وجعفر والى باشا « لكبير موته » ، والصيد أشرف البارودي
« لإمدادهما بأصول الديوان الخطية »

وكنت أحب أن يشير للشارحان إلى أن عناية وزارة المعارف
بطبع دواوين الشعراء الذين رفقوا اسم مصر فى العصر الحديث
ترجع إلى العرابى باشا ، فهو صاحب هذه لفكرة ، وفى عهده
ظهر ديوان حافظ ابراهيم سنة ١٩٣٧

وكنت أحب أيضاً أن يشير إلى الظرف الذى كتب فيه
التقديم ، وقد تركه الدكتور هيكل باشا بدون تاريخ ، لسبب
توضحه الأسطر الآتية :

كانت وزارة المعارف إلى الدكتور هيكل فى وزارة محمد
محمود باشا الأخيرة ، وفى تلك الأيام بدىء بطبع ديوان
البارودي ، وكاف مفهوماً أن هيكل باشا سيكتب مقدمة الديوان ؛
تم استقالات وزارة محمد محمود باشا ونلتها وزارة على ماهر باشا ،
وفى الوزارة الثانية كان الفقراشى باشا وزير المعارف ، فكتب
إلى هيكل باشا بدعوه إلى كتابة مقدمة الديوان ، مع أن ظواهر

الأحوال كانت تقول بأن بين الرجلين شيئاً من الجفاء
ولو أشار للشارحان إلى هذه اللوحة الأدبية لكانت شاهداً
جديداً على ما عند رجالنا من كرام الأداب
وسكت للشارحان عن الشارح الأول ، كما سكت عنه هيكل
باشا ، وفى الطبقات العلمية لا يجوز هذا الإهمال

ويمتطيع طلبة السنة للتوجيهية أن يسألوا أسانذتهم عن
ذلك للشارح ، إن كان يهمهم الاستقصاء

تقد مقدمة هيكل باشا

تقع هذه المقدمة فى أكثر من ثلاثين صفحة بالتقطع
المتوسط ، وقد كتبت فى ساعات غلب فيها الصفاء ، فقد كان
الدكتور هيكل فى عزلة تشبه عزلة لئسناك بعد خروجه من
المعارف ، وكان يمانى للكلف بالخلوة إلى القلم بعد أن سُفيل
عن الأوس به جديداً من الشهور الطوال

هى مقدمة جيدة جداً ، وربما جاز القول بأنها أجود ما صدر
عن الدكتور هيكل من الدراسات الأدبية ، فقد نفذ إلى أعماق
المبكرة البارودية ، واستطاع فى بعض النواحي أن يذيع سرها
المكنون

وسيجىء فى الامتحان التحريرى سؤال أو أسئلة من هذه
المقدمة ، فن الواجب أن نتناولها بالنقد الرفيق ، لتساعد طلبة
السنة للتوجيهية على إدراك ما فيها من مقاصد وأغراض ، فالنقد
هو الذى يوجههم إلى فهم مدلولها الصحيح ، وهو الذى يهديهم
إلى مكانة البارودي فى تاريخ الأدب الحديث

نصيب البارودي من علوم اللغة العربية

نص الدكتور هيكل باشا مرتين على أن البارودي كان يجهد
للنحو والصرف والعروض ، ولانص على هذا مرتين فى المقدمة
يشهد أن هيكل باشا لم يكن فى هذا الحكم من الرأتين
فمن أخذ (حيثيات) هذا الحكم القاسى ؟

أخذ من الشيخ حسين المرصنى ، فقد نص فى (الوسيلة
الأدبية) على أن البارودي كان يجهد للنحو والصرف والعروض ؛
وكان يجب على الدكتور هيكل أن يذكر أن الشيخ المرصنى لم يقل

فما معنى ذلك ؟ معناه أنه توهمها أولاً مفعول (حسب)
ثم أدرك أنها خبر (أن) والذي يجمل النحو لا يدرك هذا الفرق
٤ - وفي الصفحة نفسها نجد البارودي يقول :

« اللهم يا هادي الضلال في الليل المدلم ، وناصر للمهوفين
في غمرة اليوم الملمم »

وننظر فنجد البارودي عما كلة (المهوفين) وأثبت كلة
(الملاك) حرصاً على الازدواج ، فنفهم أنه كان يعرف علم البديع
٥ - ومن هنا ما جاء في ص ٥٠ حيث يقول :

« ما وعد إلا وأخلف ، ولا سالم إلا وأتلف »

فقد عما (سالم) وأثبت فوقها (أوعد) حرصاً على الجناس
والطباق ١

٦ - وفي مقدمة الديوان يحددنا البارودي عن (ذكر الشيء

باسم غيره لجارته إياه) فنفهم أنه كان يعرف أشياء من علم البيان

٧ - ونص " البارودي على قصائد فيها (لزوم ما لا يلزم) ،

فكيف يقع هذا من رجل يحكم عليه هيكل باشا يجمل لتوافق ؟

يضاف إلى هذا أحكامه على الشعراء وهي تدل على بصيرة

بالنقد الأدبي ، وكذلك تدل استفادته من المعاجم على فهمه لأسول

علم الصرف

وصفة القول أن البارودي كان على بينة من علوم اللغة

العربية ، وإن لم يصل إلى التفوق في تلك العلوم ؛ فقد كان يستمد

على فيض الفطرة والطبع ، وهما أفضل أدوات الشعراء

الخرجات والقراميات

وطاب للدكتور هيكل باشا أن يؤكد أن البارودي لم يكن

ساذقاً في الخريات والقراميات ، وقد جزم بأن قصائده في هذين

الفنين لم تكن إلا محاكاة لأساليب القدماء

وهذا الحكم صواب من جانب وخطأ من جانب ، فهو صحيح

في الخريات لأن أشعار البارودي في الخمر لا تخلو من ضعف ،

ولكن هذا الضعف لا يرجع إلى أن الخمر لم تذهب بمقل

البارودي ، كما يقول الدكتور هيكل ، وإنما يرجع إلى أن وصف

الخمر فن لا يحسنه جميع الشعراء وإن كانوا في جها من الصادقين

أما قراميات البارودي فهي صدق في صدق ، وأشعاره

في المشق آية في الإفصاح عن سبوات القلوب ، وقد تذكر

بقراميات الشريف في بعض الأحيان

هذا القول إلا في مقام التثناء على ما كان البارودي يملك من بوارق
الفطرة والطبع ، وإلا لئن العسير أن نصدق أن البارودي كان

يجمل ما لا يجوز جهله من أصول النحو والصرف والمروض

ولكن أين الشواهد على علم البارودي بعلوم اللغة العربية ؟

في الديوان رسالة مثبتة بالتركيبات ، وهي رسالة لم يلتفت

إليها الدكتور هيكل ، ومنها أتخذ الشواهد على ضعف الحكم

التي نقله عن صاحب « الوسيلة الأدبية »

وإلى معاليه أسوق الحديث :

١ - في ص ٤٣ جاء بخط البارودي في وصف ما حان هو

ورقاؤه من هياج البحر :

« ومكثنا على ذلك ثلاثاً ، لا نجد فيها غياتاً »

وعند تأمل الخط نجد أن الأصل (ثلاث) و (غيات) ،

وأن البارودي التفت إلى الخطأ النحوي فحذف ألفين فوق هاتين

الكلمتين ، وهذا يشهد بضعفه في النحو ، ولكنه لا يشهد

عليه بجمل النحو ، بدليل هذا التصحيح

٢ - وفي ص ٤٦ نجد بخط البارودي :

« هيات ، ما كل شامة خالاً ، ولا كل حلقة خلخالاً »

وعند تأمل الخط نرى أن الأصل (خال) و (خلخال) ،

وزى البارودي وضع ألفين فوق هاتين الكلمتين

والتصحيح في هذه المرة أدق ، فهو في الشاهد السالف

كان التفتاً إلى حكم الظرف وحكم المفعول في الإعراب ، وهو

في هذا الشاهد التفت إلى حكم (ما) المجازية ؛ وكان يسه

أن يفتي هاتين الكلمتين من التصحيح ليسير مع النحوي

التي يقول :

وَمَهْهَفِ الْأَعْطَافِ قَلْتُ لَهُ : أَنْتَبْ

فَأَجَابَ : مَا تَسَلُّ الْمَجْبُ حَرَامُ

والذي يفتق بين (ما) المجازية و (ما) التيمية لا يوسم

بجمل قواعد اللغة العربية

٣ - وفي ص ٤٩ نجد بخط البارودي :

« بل حسب أن قطرات اللُزْنِ ، دموع أسالتها زفرات

الْحُزْنِ » ٢١

وننظر إلى العين من دموع فزراها كانت (عا) ثم أصارها

البارودي (ع)

في ذيل الصفحة الثالثة والشربن لرجع من ذلك الاغصان ،
وهذه إشارة فيها كل البيان
الطبيعية بين الصمت والنطير

وشاء الدكتور هيكل باشا أن يحكم بأن « البارودي إذ كان
يسجل للصور في شعره لم يكن يجعلها في صمتها وسكينتها على
ما يولع به عشاق الطبيعة الصامتة »
فما معنى هذا الكلام ؟ ومتى صممت الطبيعة في أوصاف
الشعراء ؟

لله يريد أن يقول إن البارودي كان قوى الشعور بحيوية
الناظر للطبيعية ، وبما فيها من قاعلية وانفعال ، فقتصر به التعبير
عن بلوغ ما يريد

المستشورون في عهد تربي

هم في نظر الدكتور هيكل رجال الجيش ، وقصر الاستنارة
على رجال الجيش في ذلك العهد غير صحيح ، فقد كان في مصر
جماعات علمية وأدبية تفوق في الاستنارة رجال الجيش ، والاصواب
وضع كلمة « المياسيين » في مكان « اللحنين » فقد كان رجال
الجيش ساسة البلاد في ذلك الحين

تاريخ الشعر العربي

ويقول الدكتور هيكل إن الشعر العربي قضى ألف سنة في
انحلال إلى أن بعثه البارودي ، فمن أين جاء بهذا القول ؟

أتحكم على ماضينا الأدبي هذا الحكم الظالم في سبيل إنصاف
البارودي ؟ ليرجع الدكتور هيكل إلى « مختارات البارودي »

إن شاء ، فإن فعل قسيمرف أن البارودي يرى غير ما يراه ،
فقد وصل اختياره إلى القرن السابع ، وصح له أن يحكم بأفكار

سبط ابن التماويني وهو من شعراء القرن السادس كان يتابع
الشريف الرضي ويمشي على أثر مهباز الهديلي . والبارودي الذي

اعترف بحياة الجزالة الشعرية في القرن السابع كان من شعراء
القرن الثالث عشر ، وعلى هذا تكون المدة التي انحل فيها الشعر

نحو خمسة قرون ، فكيف يجعلها الدكتور هيكل عشرة قرون
ويوصي بإسقاطها من الحساب ؟

يشفع للدكتور هيكل أنه أراد المبالغة في التنويه بمقام
البارودي ، ولكن الإحسان إلى البارودي كان يتم بدون الإسادة

وما للوجوب لأن تقول لبارودي « كذبت » حين يتحدث
في أشعاره من هواه ، مع أنه يقول في مقدمة الديوان :
« إتمامي أعراض حركتي ، وإياه جمع بي ، وغرام سال
على قلبي »

أما أن كان الدكتور هيكل يريد تنزيه البارودي عن مآثم
الفتيان ، فكلامه وجه مقبول ، فقد كان البارودي رئيس
الوزراء في بعض العهود ، ويجب على الوزراء أن يمشوا بلا قلوب
الجبر في شعر البارودي

ويقول الدكتور هيكل باشا إن الجديد الذي استدعى الإعجاب
بشعر البارودي « هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة
وسلاسة وقوة دون اعتماد على سمات اللفظ البديعية »^(١)

وتقول إن هذا للتصوير بسيد من أذهان من عاصروا البارودي
وكانوا مولعين بالزخرف والبريق ، وإذن يجب على الدكتور هيكل
أن يتلس رأياً غير هذا الرأي ، وهو قد اهتدى إلى الصواب بعد
ست عشرة صفحة فقال :

« إن هذا للشعر كان جديداً كله ، كانت عما كانه الأقدمين
جديدة ، وكانت ممارسته إياهم جديدة ، وكانت رياضته القول
على مثالم جديدة »^(٢)

فاذا أهد طبع الديوان فليتفضل الدكتور هيكل بحذف
الحكم الأول والاكتفاء بالحكم الثاني

التحكيم في التاريخ

لبارودي قصيدة لامية قال فيها ما قال في التنديد بالمصريين ،
ويتص الديوان على أنها قيلت في عهد « إسماعيل » ولكن
الدكتور هيكل يعتسف فيحكم بأنها قيلت في عهد « توفيق »

فهل يملك الحق في نقل القصائد التاريخية من عهد إلى عهد ؟
إن عصر إسماعيل كان مبعث نهضة بأجماع الآراء ، وعصور

النهضات لا تخلو من بواعث الحب والبغض ، والجد والملام ،
فكيف نستبعد صدور قصيدة نائرة في عهد إسماعيل ؟ وكيف

عرف هيكل باشا أن البارودي لم يذق في عصر إسماعيل غير
الفرار والاطمئنان ؟

لو أن الدكتور هيكل التفت إلى القصيدة التي أثبتتها بيده
(١) س ١٤
(٢) س ٣٠